نظرات في التربية

اللعب وأثره في حياة الطفل

للأستاذ رفعة الحنبلي

لكل إنسان في هذه الحياة أهداف يرمي إليها ، لكنهم قلما يشتركون في هذه الأهداف ؛ إلا أن هنالك غاية واحدة يشترك البشر كلهم فيها . هذه الغاية هي السعادة .

إن هذه الغاية التي عرفها علماء النفس « بعامل اللذة » تكيف أعمال الإنسان ، وتتحكم في تصرفاته ، وتدفعه إلى سلوك السبل التي توصله إليها فتمهد له حياة مرحة وعيشة رخية

وفي الواقع أن هذه اللذة قد تختلف باختلاف البيئة والوسط وقد تتباين بتباين الجنس والعمر ، فاللذة التي تنساق إليها الفتاة أو المرأة هي غير اللذة التي يتجه إليها الفتى أو الرجل ، كما أن لذة الأطفال هي غير لذة المراهق والشيخ

بيد أن البيئة والوسط لهما أثرهما في توجيه هذه اللذة وتكييفها حسب النظم الاجتماعية والقوانين الأخلاقية ، والطرق التربوية التي يعيش الفرد في كنفها ويتفيأ ظلها ؛ ولذة الطفل تتمركز في لعبه المختلفة الأنواع ، فهي أولى رغائبه ، وقبلة أنظاره ، ومحط آماله ، وهدف أحلامه

* * *

والتربية الحديثة تقوم على تهيئة الوليد للمستقبل ، أي أنها تؤهله للحياة ، والتأهل للحياة إنما يكون في الاهتمام بميوله ، ومعرفة غريزته ، وتمهد حاجاته في دور طفولته الذي هو وقت نموه وتقدمه ، لذا كان من أقدس الواجبات على المرء أن يهتم بهذه المرحلة من حياة الوليد ، وما تفتقر إليه من عناية

وما العناية إلا تهيئة أجواء من الحياة ، تسمح للوليد بالنمو الطبيعي في الجسم والعقل والخلق ، ولا يتوقف هذا النمو على ما يكتنفه من العوامل التربوية والاجتماعية ، وما يحف به من العناصر التهذيبية والأخلاقية وحسب ، بل يتوقف على ترك قوى الأطفال وغرائزهم وميولهم في جو حر طليق لا يقيده نظام ولا تحده إرادة ؛ والطبيعة هي الجو الطليق للطفل ، توجب عليه أن يعيش عيشة الأطفال ، وتلزمه أن يحيا حياتهم ، وتحمله على أن يلعب لعبهم ، من تلقاء نفسه ، وبكامل حريته ، كما تتطلب مصلحته ، وتقتضي غريزته

فالطفولة هي أهم الأدوار التي يمر بها الإنسان إذ تكون طبيعة الوليد سريعة الانفعال شديدة التأثر بما يعرض في دائرة حسه ، والتي يتأهب عقل الطفل فيها لقبول المؤثرات التي تمتزج في مزاجه الرخص ، فتبعث فيه صفات تختلف قوة وضعفاً تبعاً لتلك المؤثرات

إن العوامل التي لها الأثر العميق في تربية الوليد وتهذيبه كثيرة ، والعناصر التي لها النصيب الأوفر في تنشئته تتشئة تتلاءم مع غاية الحياة وغيرة ؛ على أن اللعب هو أهم تلك العوامل والعناصر في حياته ، فاللعب إنما هو استعداد للحياة كما يقول العلامة « كروس » . وقد ذهب المربي الكبير « فروبل » — وهو أول من ابتكر روضات الأطفال — إلى أبعد مما ذهب إليه زميله فهو يقول : « من خطل الرأي وعقم الفكر ، أن ننظر إلى اللعب كشيء لا وزن له ولا قيمة ؛ ولكن من حسن الرأي وبعد النظر ، أن ننظر إلى اللعب كعامل له حيويته ومؤثراته وغايته . إن لعب الأطفال لأشبه بالبراعم لحياة الإنسان ، فإن كانت هادئة أو مضطربة ، نشيطة أو خاملة ، خصبة أو ماحلة ، مفعمة بالسعادة أو مغمورة بالألم ، تحمل رمز السلام أو صنى الحرب ، كل هذه تتصل اتصالاً وثيقاً باللعب التي تتمر الطفل مدة طفولته »

ولا بد لنا من أن نعرض نظريات اللعب المتعددة التي اختلف علماء النفس في أمرها وتفاوتت بحوثهم فيها ، ليقف الإنسان على عواملها ودوافعها

ذهب بعضهم إلى أن اللعب ليس إلا ظاهرة من ظواهر الراحة ، أو بعبارة أخرى ليس اللعب إلا فترة من الوقت يأخذ الجسم فيها قسطه من الراحة ، والفكر حظه من الهدوء ؛ ولا يسع المرء إلا أن يتساءل لماذا يطيب اللعب للانسان ، بعد أن يكون تعباً منهوك القوى ، متوتر الأعصاب ، أكثر مما تطيب له الراحة ؟ ألا نشاهد الأطفال يرغبون في اللعب ويلتمسونه فور نهوضهم من فراشهم ؟ والحيوان ألا تراه يلعب من الصباح حتى المساء دون أن يقوم بعمل ما ؟

وراح يزعم البعض وعلى رأسهم « شيلر » — وناصره بعد ذلك الفيلسوف الإنكليزي الكبير « سبنسر » — أن اللعب

يمثل فيضان القوة الزائدة في الطفل ؛ ويعلل ذلك أن القوى الحيوية تزداد عنده ازدياداً كبيراً في وقت لا يمكنه أن يصرفها إلى أي عمل ذي أهمية ، فتتكتل هذه القوى ، وتنساب إلى الشعب التي تكونت — فيما مضى من الأيام — في الجهاز العصبي ، فتحدث في الطفل فيضاناً يدفعه إلى اللعب.

ولا ريب أن تكتل هذه القوى الفياضة يدفع الطفل إلى اللعب ، ويساعده على التبسط به ، ولكننا نجد أحياناً بعضاً من الأولاد — على الرغم من التعب الذي يستولي عليهم من جراء أعمالهم — لا يزالون يلعبون لعبهم حتى إلى وقت إغفائهم ! وقد نشاهد أيضاً أن بعض المرضى من الأولاد ، يفزعون إلى ألاعيبهم ، يلعبون بها ويعبثون ، قبل إبلالهم من مرضهم وحتى قبل استكمالهم قوامهم ونشاطهم !

ويرد « ستانلي هول » أسباب اللعب إلى عوامل وراثية بعيدة Atavisme خلفتها الأجيال الماضية . فيقول : إن اللعب ليس إلا قوى بدائية للإنسان السالفة ورثها الطفل واحتفظ بها. وهذا الرأي يطابق ما ذهب إليه « هيكل[1] » من أن الطفل يمثل في لعبه ما مرّ على الإنسان من الأدوار في نشوئه

وما اللعب في نظر « هول » إلا عبارة عن ارتياض ضروري لإخفاء بعض الوظائف التي أصبحت عديمة الفائدة ؛ فالهدف الذي أراده من نظريته هذه هو أن اللعب ليس وسيلة للقضاء على هذه الوظائف غير النافعة ، بل التأثير في غيرها من الوظائف الأخرى وتكييفها وإعدادها لقبول حياة جديدة

على أن أهم تلك النظريات التي فازت بإعجاب قسم كبير من علماء النفس هي نظرية « التدريب الإعدادي » Théorie de l'exercice préparatoire ، وأول من فكر فيها وتعمق في دراستها العالم الكبير Karl Groos عام ١٨٩٦ في كتابه « ألعاب الحيوان » Les Jeux des animaux

أراد هذا العالم أن يتجه في درس اللعب إلى ناحية جديدة — بعد أن لمس عقم نظريات زملائه — فولى وجهه شطر الناحية البيولوجية من بحثه ليقف على دقائقها وليعرف كنه أسرارها. ولقد وفق « كروس » في نظريته هذه توفيقاً كبيراً ، حتى أنه أدرك القوى العقلية وتفهم اضطراباتها ، لا عند الإنسان فحسب ، بل عند الحيوان أيضاً

(١) Hækel

ولو أردنا أن نبحث ، على ضوء هذه النظرية ، القوى الفعالة للعب ، لوجدناه يختلف جد الاختلاف في جماعة الإنسان ، ويتباين بتباين أنواع الحيوان . فالهرة الصغيرة تقبع في ركن من أركان الحجرة ، منبسطة اليدين ، منغمضة العينين ، مرهفة السمع ، حتى إذا ما اهتزت أمامها ورقة ما أو سحبت من أمامها ، تراها تقفز عليها قفزة سريعة ، وداعبتها بيديها فترة من الزمن ، ثم مزقتها بأنيابها ، فكأنما بعملها هذا تستعد للحياة وتهيئ نفسها للقفز على فريستها في المستقبل . والجدي الذي يمارس النطاح منذ صغره يعد نفسه للحياة التي عرفت عنه ، فلكل حيوان غريزة خاصة به ، أتته عن طريق الوراثة البعيدة أو القريبة من الفصيلة التي ينتسب إليها ، فتظهر هذه الغريزة واضحة جلية – وإن كانت في بدئها ضعيفة إلى حد ما – منذ النشأة الأولى

وقد تتفاوت مدة نمو هذه الغرائز في الحيوان بتفاوت درجته في سلم الحياة ، فالحيوانات الدنيا تحتاج إلى مدة أكثر مما تحتاجه الحيوانات العليا ، لاستكمال نمو غرائزها واستيفاء قوتها ؛ وقلما نجد غريزة في حيوان تتفق مع غريزة في حيوان آخر ، فالهرة تقفز على الورقة إذا ما اهتزت أو تحركت ، أما الجدي فلا يقفز عليها مهما اهتزت وتحركت ، ولكنه يتأهب للنطاح حالاً إذا وجد أمامه جدياً آخر ؛ فالهرة تجهل النطاح ، كما أن الجدي يجهل القفز ، لأن لكل منهما غريزته الخاصة به

كذلك نرى للإنسان غرائز بقدر ما لديه من أنواع اللعب : فغريزة للصيد ، وثانية للقتال ، وأخرى للمداعبة وغيرها . . .

على أن هذه الغرائز الموروثة لا يكتمل نموها ولا تستوفي حيويتها إلا باكتساب واقتباس جديدين ؛ ولن يفوز الإنسان بهذين العنصرين الهامين إلا بعد ممارسة اللعب الذي من شأنه أن يعد للمرء الحياة الصحيحة . لذا وجب على الإنسان — وهو أكثر الحيوان طفولة — أن يلعب ، ويلعب كثيراً سنين عديدة ، كي يمسي فيما بعد إنساناً جديراً بالحياة ؛ إذ أن اللعب ، في الواقع ، يروض بعض قواه الفعالة ، ويروض معها بعض وظائف أعضائه ، ويسمو هنا الترويض بالإنسان إلى ما يصبو إليه من أهداف سامية وغايات نبيلة

يعد هي أهم تلك النظريات[1] التي أشبعها علماء النفس

(١) اعتمدنا في بحث نظريات اللعب على كتاب العلامة (كلابارد) « نفسية الطفل وعلم التربية التجريبي »

دراسة وبحثاً ، ولا بد لنا من الرجوع إلى البحث عن أثر الألعاب في حياة الانسان بعد أن أتينا على ذكر عواملها المتعددة

والواقع أن اللعب لا يعني الراحة ولا التسلية ؛ وإنما هو عمل حيوي للانسان ، له الأثر الأكبر في حياته ، كما أن له خصائص بيولوجية ، تسهل على المرء سبل التقدم ، وتمهد له طريق الحياة

فالرغبة في اللعب إنما تنبثق من الغريزة الكامنة فيه ، فيختار من الألعاب ما يتفق وميوله ورغائبه وتساعده على بلوغ هدفه . على أن هذه الرغائب وهذه الميول تتنوع بتنوع العوامل الاجتماعية والخصائص الفردية ، إذ تعبر عما يختلج في نفسه من هذه الخصائص وتفصح عن نفسيته بأجلى مظاهرها

وأخذت التربية الحديثة تواجه هذه الميول وتتعهد هذه الخصائص ، فتوجهها إلى النواحي الاجتماعية والأعمال الانسانية التي قد يقوم بها المرء في المستقبل

يقول (فرويل) : « ليس للمشرف على الوليد إلا أن يوجه تصرفاته ، منذ نعومة أظفاره ، في الوقت الذي يرتع ويلعب بين ألاعيبه الكثيرة ، إلى معرفة خصائصها ، وأن يظهر له أثرها في نفسيته وخلقه » ونحن إلى ذلك نمتاز بأنها العامل الأقوى في نمو العقل والجسدي

فالأبحاث التي قام بها العلامة الفرنسي Binet أكدت لنا أن هنالك اتصالاً وثيقاً بين النمو الجسدي والنمو العقلي ، أو بالأحرى بين صحة الجسم وقوة العقل ووثبة الفكر . لذلك نرى أن الألعاب التي يتهالك عليها الطفل ، في بدء حياته ، والتي يختلف إليها بين آونة وأخرى تساعده على هذا النمو الذي أشار إليه « بينه » والذي يلازمه طول حياته الأولى ؛ فالاعتناء بالألعاب هو وسيلة لتحسين العقل والجسم معاً

يحتاج الوليد ، في الواقع ، إلى كثير من اللعب ، فالقوانين المدرسية التي تحتم عليه الصمت والجمود ، لا تتلاءم مع حياته ، وما يتطلبه من حرية ، وما يفيده من استقلال . لذلك أدرك « فرويل » أن المهد ليس هو البيئة الخاصة التي تلائم الوليد ، لأنها تقيد حريته وتفقده حيويته وتخمد نشاطه . وهذا ما حمله إلى إنشاء روضات الأطفال يلعبون ويغنون ويرقصون في جو حر طليق يتعهدهم كما يتعهد البستاني نبات روضته

فالنظم المدرسية الحديثة حتمت على المربين تمهد الأطفال تمهداً كلياً ، وإغراءهم على اللعب بالألاعيب وبشتى الوسائل ، وترغيبهم فيها بمختلف العوامل ، مما حداهم إلى وضع مقادير وفيرة من الألاعيب الجميلة بين أيديهم ، يختلفون إليها برغبة وشوق ، ويصرفون بها بحرية تامة . والطفل لن يكون طفلاً إذا لم يفزع بين حين وآخر إلى اللعب لأن طبيعته تقتضي ذلك

وقد يثير منظر هذه الألعاب فضول الطفل ، فيدفعه إلى تفهم أسرارها والوقوف على دقائقها ، وما يحيط بها من إبهام وغموض ، فيتفتح عقله على آفاق جديدة ، وتنكشف نفسه على أجواء طريفة ، ويقوى جسمه وتتصلب أعضاؤه ، فيتم بالعقل النير ، ويتمتع بالجسم القوي ، ويتزود بالمعرفة الواسعة

لذا وجب على المربي أن يُذكي غريزة اللعب في نفس الولد ، ويستحث رغباته ، ويلهب فضوله للاستقراء عن خصائص هذه اللعب والوقوف على ماهيتها ، لأن هذا الاستقراء هو في الواقع من أهم العوامل التي لها الأثر الأكبر في إيقاظ القوى الفكرية فيه ، ورفع مستواه الأدبي والعقلي والخلقي ؛ بل يجب على المربي ألا يهمل رغبات الطفل — التي هي خلجات نفسية وقتية — وألا يتجاهل فضوله الذي يرتبط إلى حد ما بالبيئة والوسط والعمر . فالإهمال يورثه قلة المعرفة ، والتجاهل يخمد فيه الدافع النفسي للعمل الذي من شأنه أن يرسم لنا خطوط نفسيته ويبين ما يجول في خاطره

هذا إلى أن التربية الجنسية والخلقية والعقلية تتصل اتصالاً مباشراً بالألعاب التي يتسلى بها الأطفال ؛ وقد تختلف هذه الألعاب باختلاف حداثتهم ، وقد تتباين بتباين عواملها ، إلا أن الهدف الأسمى والغاية المثلى منها هي تربية الوليد تربية سامية صحيحة .

فاللعب يرمي إلى إنماء الجسم وتقوية البدن ، وإلى غرس الفضيلة في النفس ، وتزويد العقل بشتى المعارف والعلوم ، فصفاء القلب ، وجمال الأدب ، وطيب الخلق ، وإظهار التعاطف ، وإيراز العادات الحسنة ، وتقوية الميول الاجتماعية ، وجميل المعاملة ، وحسن المعاشرة ، وحب الإنسانية ، إنما تكتسب عن طريق الألعاب

ولما كان الوليد يميل بطبيعته إلى العمل ويندفع بغريزته إليه — واللعب أول مظهر من مظاهر العمل — كان هدف التربية الحديثة أن تصاغ أعمال التربية الأولى في صور الألاعيب ، معدة لتصريف غرائز الطفل وتوجيه ميوله ورغائبه توجيهاً يعود عليه بالنفع في مستقبل حياته ، فاللعب إذاً هو بمثابة وسيلة هامة لتكوين الطفل تكويناً أدبياً . فليست « الحركات والألاعيب التي

يأتيها الطفل ، يقصد بها إشباع الرغبات ، وسد أطماع النفوس وحسب ، ولكنها مختارة لغايات تهذيبية وأخلاقية وأدبية » .

ولما كانت التربية تبتدئ عملها منذ الدقيقة الأولى التي يبصر الطفل فيها النور ، والتي تمشي جنباً إلى جنب مع الطفولة ، وتستمر معه طوال حياته ، وجب أن تعاون التربية الطبيعة على الوصول به إلى الغاية المقدرة له ، ويتوقف نجاح نشأة الطفل على قوة بدء التربية . لذا كانت العناية بالتربية الأولى في دور الطفولة التي هي أهم أدوار الحياة ، تفوق كل عناية ، وهذا ما عناه Perez في قوله : إن التربية تبتدئ منذ المهد

وماذا يراد بالتربية الأولى ؟ ... أليست هي التي ترمى إلى « إنماء قوى الأطفال الجسمية ، وتمرين حواسهم وإيقاظ مداركهم ، وحملهم على تعرف مظاهر الطبيعة حولهم ، ووقفهم على أسرار الاجتماع ، والتعاون على الأعمال ، وتوجيه نفوسهم إلى النافع في الحياة ؟ »

أليست هي التي ترمى إلى إنماء الجسم وإيقاظ العقل وإحياء القلب ؟ أليست هي التي تحتم جعل أساليب التعليم سائغة شائقة ، تبعث في نفس الوليد الغبطة ، وتنفخ فيه أسباب المرح ، وتملأ قلبه بهجة وسعادة ؟ ...

ليس اللعب في نظر المربين إلا وسيلة التربية الأولى التي من شأنها أن تؤدب النفس ، وتهذب الخلق ، وتقوم الطباع ، وتوجه الغرائز . وما اللعب إلا العامل الأقوى في تهيئة تلك الأجواء التي تتطلبها التربية ، وتلك الآفاق التي ترغب في إحاطة الوليد بها ؛ فاللعب من أهم الأحداث في حياته — إن لم يكن أهمها — لأن من خصائصها التهذيب والتأديب والتثقيف ، فضلاً عن تفتيح النفس لألوان من المرقة ، وانفساحها لصنوف المؤثرات والأحاسيس ، وتهيؤها للحياة المقبلة

وهو إلى ذلك — أي اللعب — يمثل دوراً اجتماعياً من الطراز الأول في الهيئة الاجتماعية . وإذا ما رجعنا إلى رأي العالم كار Karr نجده يقول : إن الألعاب لها الأثر الكبير في إنماء شعور التكتل عند الفرد ، وهذا التكتل له الشأن الخطير في حياة الإنسان وفي رقى المجتمع البشري . وقد ذهب هذا العالم الكبير إلى أبعد من هذا الحد ، فزعم أن كثيراً من الألعاب تساعد المرء على التخلص من بعض الغرائز الموروثة غير الاجتماعية والتي يتضرر المرء منها ، إن هي بقيت متأصلة فيه

غير أن هذا التخلص لا يراد به سوى التسامي بهذه الغرائز وتوجيهها توجيهاً اجتماعياً سامياً ، فالانفعالات في الوليد أوجدوا لها علاجاً اجتماعياً أطلقوا عليه « التسلية النفسية » التي تتسامى بغرائزه غير الاجتماعية ، وتقف انفعالها إلى النواحي الاجتماعية كتربية الحيوان وتعهد الأزهار وغيرها

وقد تأثر العلم قديماً ولم يزل يتأثر حتى الآن ، بالألعاب التي يتلهى بها الإنسان ، وبفضل هذه الألعاب اكتشفت أول خصائص الكهرباء ، وظهرت الدراجة ، وحلت بعض المعضلات وتمتع العالم بشتى الاختراعات ومختلف الاكتشافات

إن الألعاب التي يلعبها المرء واللاهي التي يلهو بها هي عوامل لها الأثر في ترقيته وتكوين خلقه وميوله وتحديد وجهة نظره في الحياة ، فهي عوامل في تربيته تؤثر فيه أثراً مستمراً ، فتشكل أخلاقه وعقله من يوم يحل في هذا العالم إلى يوم يغادره » فهي وسيلة لتأديب نفسه وتهذيب خلقه وتنمية ذوقه

وإذا ما غمرنا الطفل بالألعاب الكثيرة ووسائل اللهو فكأننا غمرناه في بيئة هي أسبقها إلى التربية الحقة ، وأدناها غاية من البيئات الأخرى .

(بيروت) رفعة الخنبلي

وزارة المواصلات

مصلحة الموانى والمنائر

تقبل العطاءات بمكتب سعادة مدير عام مصلحة الموانى والمنائر لغاية ظهر يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤١ عن توريد دبش ودقشوم بين الرأسين الثالثة والرابعة على ساحل بحر بلدة برج البرلس وكذا على حاجز بحرى رأس البر بدمياط — ويمكن الحصول على المواصفات وشروط التوريد من الادارة العامة للمصلحة بالترسانة باسكندرية نظير مبلغ مائة مليم للنسخة الواحدة خلاف ٣٠ مليم رسم تمغة على الطلب ٨٥١٠